

القطاع الثقافي في تونس بعد الثورة

خلف جدار من الشريط الشائك في جادة بورقيبة في وسط مدينة تونس تقع وزارة الداخلية تحت حراسة مشددة من الجنود والدبابات. وبالرغم من محاولات السلطات إخفاء أي أثر للانتفاضة المستمرة التي تسيطر على البلاد فإن الحائط الخارجي للوزارة مليء برسومات الغرافيتي التي تتحدى الواقع. تقول إحداها، "شكراً فيسبوك".

على جادة بورقيبة، وهي منتهى عريض مرصوف بالمقاهي، يقع مسرح تونس البلدي والسفارة الفرنسية. يضح مركز المدينة بحركة مشاة ثقيلة؛ باعة في الشوارع الضيقة يعرضون النظارات الشمسية؛ في المقاهي، يتوقف الشبان عن



الكلام لينظروا إلى فتاة جميلة وهي تمر. الشارع ذاته كان موقع عدد من أكثر المشاهد رمزية خلال الثورة التونسية الأخيرة. منذ بضعة أشهر فقط، ركع رجل تتدلى سيجارة من فمه و"أطلق" رغيف خبز (باغيت) على صف من قوى الأمن المتجه نحوه.

١- الصورة: متظاهر تونسي خلال احتجاج ضد الحكومة الجديدة في تونس في ١٨ كانون الثاني/جانفي ٢٠١١ (فريد دوفور/أ ف ب./ غيتي للصور)

اليوم، زوايا الشوارع مليئة بالقمامة. يوقفنا رجل ليشرح لنا أن الشوارع بالعادة تكون نظيفة لكن عمال القمامة مُضربون للمرة الثانية في أسبوعين. أما خارج العاصمة، فيقوم شبان بتشكيل لجان تنظيف الشوارع في أحيائهم.

البلد يشهد تغييراً متواصلاً وهو ما يزال يتنقل بين المكاسب الهشة بعد إزالة الديكتاتور. يطغى في كل مكان إحساس بضرورة الاستمرار بالضغط وأخذ الحيطة والقيام بالمساعي الجماعية لتفكيك بقايا حكم التجمع الدستوري الديمقراطي. التونسيون يناقشون ويتظاهرون ويعملون على تحديد المسار المستقبلي لدولتهم الجديدة.

في القاطع المليء بالأشجار الذي يفصل بين جانبي جادة بورقيبة، يتجمع الناس من كافة المشارب ليتناقشوا بالسياسة، الأمر الذي كان غير معقول خلال حكم بن علي. تنطلق مناظرات عفوية مع الأصدقاء والغرباء، لا فرق، وتجذب بعض



هذه النقاشات عشرات الأشخاص وتستمر حتى ساعات النهار الأولى. يتجمهر المارون ليستمعوا إليها أو يتوقفون للدلو بدلوهم. فريق تصوير يأخذ المشاهد من إحدى المناظرات فيجعل المشاركين أكثر مسرحية من دون أن ينتقص من جو التفاؤل المشوب بقلق عميق.

ب- الصورة: تونسيون يناقشون بالسياسة في جادة بورقيبة (تونس، ١٠ نيسان/أفريل ٢٠١١)

يخاف الكثيرون ممن يعتبرون أنفسهم علمانيين من صعود نفوذ الإسلاميين في تونس الجديدة. فمن المتوقع أن يتجه التونسيون إلى صناديق الاقتراع في ٢٤ تموز/جويلية لاختيار هيئة دستورية، وتشير الاستطلاعات الأولية إلى تزايد عدد المؤيدين لحزب النهضة، الإسلامي المحافظ، بقيادة راشد الغنوشي، خاصة خارج العاصمة. ويقول الغنوشي العائد إلى تونس بعد ٢٠ سنة في المنفى أن حزبه يتبنى الديمقراطية وهو على نموذج حزب العدالة والتنمية التركي بقيادة رجب طيب أردوغان. لكن العلمانيون يتهمونه بتأييد التعددية وأعراف البلد التقدمية لصرف الانتباه عن مشروعه لفرض أحكام الشريعة.



ج - الصورة: رجل يطلي فوق شعارات الحائط في جادة بورقيبة (تونس، ١٤ نيسان/أفريل ٢٠١١)

"يوم الجمعة أقاموا صلاة الجماعة هنا في جادة بورقيبة"، يقول سينمائي معروف، وهو يرى أن هذا النوع من عروض الإيمان في مكان عام هو بمثابة استفزاز. (بعد بضعة أيام فقط، تعرّض السينمائي البارز نوري بوزيد لاعتداء من قبل شخص ملتج مجهول على دراجة قام بضرب بوزيد على رأسه بقضيب وهو يصرخ "الله أكبر").

النادل في مقهى في الحي يطلب منا أن نجلس في الداخل إذا أردنا شرب البيرة. قبل الثورة، كان بإمكانك شرب البيرة على الشرفة كما يخبرنا.

البعض الآخر من التونسيين اليساريين يرون أن هذا جو من الهستيريا وأن زيادة ظهور المحافظين المتدينين لا يشكل خطراً على التشريعات التقدمية أو على الطابع العلماني لدستور البلاد المستقبلي. في اليوم الثالث من إقامتنا في تونس، تم إقرار قانون يفرض أن يتمثل الرجال والنساء بالتساوي كمرشحين على القوائم الانتخابية لكل حزب.

بين الجماعات الثقافية في تونس



خلال غداء في مقهى الرصيف "كافيه دو باري"، قام السينمائي الوثائقي هشام بن عمّار، المخرج الفني السابق لمهرجان "دوك أ تونس" (اللقاءات الدولية للفيلم الوثائقي بتونس) بتفصيل مشهد السينما التونسية المعاصرة. بالنسبة لبن عمّار فإن جو صناعة السينما ينقسم إلى أربعة مجموعات: المنتجين المترسخين، المستفيدين السابقين من النظام، الناشطين المناضلين الشباب، والمثاليين. يعتبر هشام نفسه مثالياً يحتل مكانة في

الوسط ولديه علاقات واتصالات جيدة مع الجميع باستثناء المستفيدين السابقين من النظام.

عندما التقيناه، كان هشام منغمساً في التحضير ليلية افتتاح "أيام الوثائقي"، وهو مهرجان سينما يستمر لثلاثة أيام ويعرض أفلاماً وثائقية لمخرجين عرب لم تُعرض من قبل وتعالج قضايا الدين والمواطنة، تتبعها نقاشات وجلسات أسئلة وأجوبة مع السينمائيين، قيل أن تنطلق في كارافان لعرضها في أرجاء البلاد. وبالرغم من أن بن عمار تمكّن من تجميع البرنامج قبل أسبوعين فقط، حضر ليلة الافتتاح جمهور من ٣٠٠ شخص ليشاهدوا "الأئمة يذهبون للمدرسة" وهو فيلم عن تدريب أئمة المساجد في باريس الذين تفرض عليهم الدولة الفرنسية حضور دروس حول العلمانية.

بعد الغداء قمنا بجولة في "سينما فريكارت"، وهي صالة سينما مستقلة تستضيف المهرجان يديرها حبيب بلهادي، صاحب فاميليا للإنتاج.

في مسرح الجيب المستقل "لاتيليه"، التقت آفاق مع معز مرابط وصالح حمودة، الناشطان والمحترفان في عالم المسرح وعضوي اللجان التي تعمل لإصلاح قطاع الثقافة. كما زارت آفاق "المعهد العالي للفنون المسرحية" حيث يعتبر معز أحد كبار الأساتذة. جماعة المسرح

هي في خضم مناقشة مطالب الإصلاح التي يطلقها الفنانون العاملون في القطاع. هناك نقاش بين المحترفين والأساتذة والهواة حول مكانة وحقوق العاملين بشكل متقطع.



د- الصورة: السينمائية كوثر بن حميدة، إيميلي ديش-بيكير من آفاق، والمنتج السينمائي والمسرحي حبيب بلهادي يناقشون أحوال السينما في تونس.

صورة الثورة

صور بوعزيزي في كل مكان. تعلن المكتبات عن كتاب سيرة حياة بوعزيزي - نشرت بعد شهرين فقط من ذهاب بن علي - بالقرب من منشورات ممنوعة سابقاً حول فساد الرئيس المخلوع وعشيرته، ومن عناوينها "بن علي الشرطي القذر". شحاذون صم يوزعون صوراً لبوعزيزي تشبه البطاقات التي عليها صور القديسين. مخرجة سينمائية تتحد من سيدي بوزيد، مسقط رأس بوعزيزي، تجد أن استخدام صورته هكذا مثير للقلق. كان هناك شهداء قبل بوعزيزي - على الأقل 6 حالات من حرق النفس في السنوات القليلة الماضية - كما قالت لنا، لكن لم يتم تخليدهم.



ه- الصورة: مكتبة في جادة فرنسا تعرض كتباً مناهضة لبن علي

في المساء رافقنا معز مرابط إلى حفلة جمع أموال تحت اسم "الفن من أجل تونس - لوحة بوعزيزي" في فيلا ديدون في قرطاج حيث يقام مزاد لوحات رقمية (pixel) من لوحة لرسم بوعزيزي، يعود ريعه للجمعية التونسية للمواطنة، الشبابية. جزء من مهمة الجمعية هو تأسيس صندوق ثقافي ينشر الفرص إلى خارج العاصمة من خلال تعزيز التعاون بين المراكز الثقافية الجديدة والقائمة واقتراح مجال أوسع للنشاطات الثقافية والفنية حول البلاد. خلال الحفل يقوم المحفلون باحتساء الكوكتيل ثم يجتمع

بعضهم بينما تنتقل عائلة بوعزيزي، وبينهم أشقاءه الصغار، إلى داخل الصالة ثم إلى خارجها للتواصل مع الحضور.

الأخبار المسائية على الراديو تقول أن مستخدمين سابقين عند بن علي اضطروا لتغيير أرقام هواتفهم النقالة لأن الديكتاتور المنفي لا يتوقف عن الاتصال بهم من السعودية. خلال حكم بن علي، كانت محطات الراديو مرآة صادقة للمحادثات العائلية لدى العائلة الحاكمة - راديو شمس أف. أم. كانت تملكه نجلة بن علي؛ موزاييك أف. أم. كان لصهر بن علي؛ راديو زيتونة كان لزوج ابنته؛ واكسبرس أف. أم. لإبن طبيبه الشخصي.

تهيمن على التغطية الأوروبية للأحداث في تونس قصص عن عشرات الآلاف من المهاجرين غير الشرعيين يغمرون جزيرة لامبيدوسا الإيطالية (وتقول النكتة أنه بسبب أن عدد التونسيين في الجزيرة أصبح أكبر بكثير من عدد الإيطاليين فإن التونسيين الذين يصلون إلى الشطآن بدأوا بالهتاف "إيطاليا، إرحلي")، بالرغم من ذلك فإن التونسيين شباب ميسورين مثل بشار لزعر بدأوا بالعودة من الاغتراب للمشاركة في بناء دولة جديدة. بشار هو شاب سويسري-تونسي يعمل في المبادرات الاجتماعية، أخذ وقتاً مستقطعاً من دراسته الجامعية في الولايات المتحدة ليطلق "صوتي"، وهي بوابة إنترنت تقوم بمسح جميع الأحزاب السياسية التونسية والسياسيين لتعرض برامجهم لجمهور شباب ملم بالإنترنت. تونسي آخر، وهو مخرج شاب، غادر تونس قبل بضع سنوات من الثورة لأنه - كما يقول - "كان لدي طموح، والأشخاص الطموحين كان أمامهم إما الاستسلام للسلطة أو السفر إلى الخارج"، يريد اليوم أن يعود لتونس.



و- الصورة: بيت الحكمة، قرطاج (١٢) نيسان/أفريل (٢٠١١)

المعركة من أجل القطاع الثقافي

في يومنا الثاني في تونس وبعد حضور عرض لفيلم "باننطار أبو زيد" لعلي أتاسي تناولنا العشاء مع سينمائيين وناشطين ثقافيين في وسط العاصمة. ضيوف العشاء كانوا يمثلون إلى حد ما ثلاثة من المجموعات الأربعة في عالم السينما كما وصفها لنا هشام بن عمار (وكلهم كانوا معارضين لمناصري النظام السابق). ناقشنا أحوال السينما في تونس، إنشاء شيء يشبه هيئة وطنية للسينما، ونشاط مختلف النقابات السينمائية المحترفة، بالإضافة إلى الأفلام الوثائقية قيد التحضير المتعلقة بأحداث ١٤ كانون



الثاني/جانفي. يقول لنا أحد صناع الأفلام أن عددا من المستفيدين السابقين من النظام السابق بدأوا بإنتاج أفلام شبابية حول الثورة. وكيف يقوم السينمائيون بالتعامل مع هؤلاء المرتدين؟ "ماذا بوسعنا أن نفعل؟ نحن لا نملك الثورة"، يشرح لنا "لكن إذا كانت الأفلام التي يصنعونها سيئة فسنقول أنها سيئة جداً".

ز- الصورة: المخرج علي حسونة والمنتج شوقي كنيس من التجمع المستقل للعمل من أجل السينما في تونس (قرطاج، نيسان/أفريل (٢٠١١))

يبدو أن التوتّر ما زال مستمراً بين المجموعات المختلفة، خاصة بين السينمائيين الشباب والمنتجين الراسخين، وفي الوسط عدد من الأشخاص الذين يحاولون التوحيد بينهم. من الواضح أن الوضع لم يرسو على حل بعد، وما يزال الناس يستكشفون أحاسيسهم حول بعضهم البعض، خاصة في المجال الثقافي.

نلتقي على حدة بصنّاع الأفلام الذين يشكلون التجمع المستقل للعمل من أجل السينما في تونس، وهي مجموعة ضغط عامة وتشاركية تأسست في ٢٠٠٩ لتتحدّى تكوين "المفوضية الوطنية لإصلاح وتنمية صناعة السينما في تونس". وبعد أشهر من النقاشات والحوارات، قدّم التجمع تقريراً شاملاً إلى وزارة الثقافة يحتوي على اقتراحات ومطالب من أجل إصلاح وتنمية قطاع السينما في تونس. هذا وتتبع العديد من اعتراضات التجمع المستقل على الوضع القائم من استثناء الأصوات الأقل رسوخاً من عملية صنع القرار المتعلق بالسياسات الثقافية. وهم يطالبون بإعادة إحياء المساحات الثقافية والمسارح القائمة والمغلقة، وبشكل خاص في المناطق خارج العاصمة، بالإضافة إلى المطالبة بتغيير المناهج الدراسية الفنية واقتراح حلول لتمكين المواهب الجديدة وبيوت الإنتاج المستقلة الناشئة.

التعامل مع الثورة

"ليسباس أرتيستو"، مسرح مستقل وكافيه جديد في حي لافاييت يديره المخرج المسرحي غازي زغباني، قد قام للتو بإطلاق ثورة الـ٢٤ ساعة. يبدو جلياً أن هذه المساحة يتم تشغيلها بموارد محدودة لتقوم بمهمة مزدوجة بين الكافيه والمسرح الصغير. في الكافيه الخافت الإضاءة، يجلس شباب وشابات يدخنون، يكتبون، ويتحدثون. يدعوننا لحضور بروفة مسرحية جديدة يؤديها ممثلان شابان على خشبة المسرح في الخلف. المسرحية عبارة عن تهكم على الناس الذين حضروا الثورة على التلفزيون ثم ما لبثوا أن أعادوا اختراع أنفسهم كمشاركين ناشطين في الثورة ("يركبون الثورة"، كما يقولون في تونس).



ح- الصورة: ليسباس أرتيستو، كافيه ومسرح في حي لافاييت (تونس، ١١ نيسان/أفريل ٢٠١١).

نلتقي بمجموعة من الفنانين البصريين في كافيه دو باري. بعضهم يدرّس في معهد الفنون الجميلة في تونس. يشرحون لنا أنه بعد الثورة، تحول قسم الفنون الجميلة إلى ساحة حرب سياسية، حيث يناضل الأساتذة لإبعاد العناصر التي كانت

تدعم ماكينة البروباغاندا التابعة للنظام السابق عن قيادة الجامعة. لكن العرض يجب أن يستمر. وحتى اليوم، تبقى الحياة الجامعية تحت القيادة الحالية. جواباً على سؤال حول كيفية تعامل الفنانين مع الانفتاح الجديد تقول لنا إحدى الفنانات الأكبر عمراً، وهي تختار الكلمات بعناية، أنه في بعض الحالات كان من الأسهل التعامل مع القضايا المثيرة للجدل، كالجنسانية والدين، في ظل الديكتاتورية. تقول أنها تخاف اليوم أن تقوم بعمل قد يُغضب الإسلاميين. رسّام شاب يخالفها الرأي: لا يمكن قياس حرية التعبير الفني بناء على المعارضة التي كان يقبل بها النظام السابق والتي كانت بمثابة واجهة زائفة من التسامح.

أما الفن الذي يعبر عن الثورة، فمن المبكر جداً أن نراه، كما يقول الفنان الشاب، فالفنانون، كما كل الناس، ما يزالون يحاولون هضم نتائج الثورة.



ط-الصورة: أسامة الرفاعي، المدير التنفيذي لآفاق، ورشا صلاح، مديرة المنح، خلال مقابلة على التلفزيون التونسي الرسمي (تونس، ١٢ نيسان/أفريل ٢٠١١)

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)، هو مؤسسة عربية مستقلة، تأسست في العام ٢٠٠٧ لدعم الإنتاج الثقافي في المنطقة العربية. وتسعى (آفاق) إلى توفير آلية دعم مستدامة للأفراد والمؤسسات في مجال صناعة الأفلام والفنون الأدائية والفنون البصرية والأدب وبناء القدرات. كما تعمل في الوقت نفسه على تسهيل التبادل الثقافي على مستوى المنطقة العربية والعالم. أمضت آفاق أسبوعاً في تونس بين ٩ و١٥ نيسان/أفريل، والتقت مع عاملين محليين في مجال الثقافة من كل الأعمار ومستوى الخبرات والجنس. وقد كانت الزيارة فرصة للتعرف على مروحة واسعة من المهتمين بالممارسات الثقافية وسماع رأيهم، بالإضافة إلى توسيع قاعدة المقدمين لطلبات المنح.